هيسبريس تمودا العدد XLVII، (2012) ص.ص 51-53

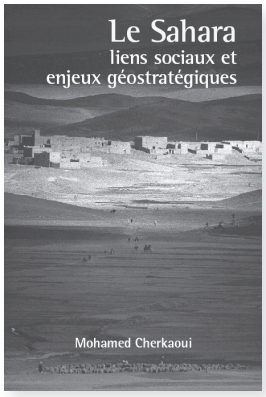

Cherkaoui, Mohamed,
Le Sahara, liens sociaux et enjeux stratégiques,
The Bardwell Press, Oxford, 206 p., 2007.

من الأبحاث السوسيولوجية ما يأتي على شكل لوحات تبدي للمطلع عليها مشاهد جامعة مانعة لما تعرض له من القضايا في تمام الملكة وخفة الروح فتمسك بانتباه القارئ وتقنعه بما يطرح من الطرحات بالرغم من إيغالها أحيانا في الأرقام وفي المبيانات الرياضية الدقيقة. وتلك حالة كتاب الأستاذ محمد الشرقاوي عن«الصحراء بين الروابط الاجتماعية والرهانات الإستراتيجية»، فإنه يشرح أسباب النزاع المفتعل حول الأقاليم الصحراوية المسترجعة من جميع جوانبها وبكل أبعادها وما يترتب على ذلك من المضاعفات، مبتدئا، في قسم أول، بالتذكير بجذور المشكل أصلا، مفتتحا كتابه عن صواب برسالة السلطان المولى عبد العزيز إلى سكان توات يندد فيها بما أقدمت عليه الجيوش الفرنسية الاستعمارية من اقتحام تلك الواحات ظلما وعدوانا والشروع في ضمها إلى تراب المستعمرة الجزائرية. وهذا الاغتصاب الذي جرى ابتداء من يوم 28 دجنبر 1899 هو بيت القصيد الذي أقيمت عليه سياسة التوسع الاستعماري التي حيث ما وجدت دولا معتبرة قائمة الذات ممتدة الحدود فإنها سعت بإصرار في التقليص منها وتقسيمها والتقليل من شأنها، وحيث ما وجدت الفراغ والهشاشة وكيانات رخوة منزوعة من كل عمود فقري فإنها لملمت أطرافها ونفخت فيها من روح الهيمنة الاستعمارية وزرعت فيها بذور النزاع. وتلك حالة المغرب مع الجزائر. لقد وقف كاتب هذه السطور على رسالة لليوطي يذكر فيها وزير الحرب الفرنسي بأن بشار بلدة مغربية. وظلت بلدة تندوف تابعة لإدارة الحماية في الرباط إلى حدود 1952. والتاريخ يشهد أن الحكومة الجزائرية المؤقتة صرحت سنة 1961 بأن لا عبرة بالحدود الاستعمارية بين الجزائر والمغرب. ولكن ما أن استقلت الجزائر حتى تنكر حكامها لذلك، بل جعلوا الأمر مطية لفرض هيمنتهم في إفريقيا الشمالية وتقمصوا فرحين مبتهجين أساليب الاستعمار والمكر والتطاول. ويفسر الأستاذ الشرقاوي ذلك بما أصابهم من«الهوبريس «hybris»، لفظ يوناني معناه بلغة الضادضرب من العربدةيصيب من يحمله الزهو بنفسه على معاملة جيرانه بمنتهى الشطط. فقد كانت مساحةالإيالة الجزائرية

تناهز 300.000كلم مربع تزيد أو تنقص، ثم صارت بقوة الجيوش الفرنسية إلى المليونين. وكانت الإيالة تعيش من منتجاتها الفلاحية الشحيحة ومن مساعدات الدولة العثمانية، ثم صارت بعد الاستقلال من الدول المصدرة للنفط والغاز فتكدست في خزينتها أموال انتشى بها حكامها الذين هم كبار ضباط الجيش، ويفيض الأستاذ الشرقاوي في المقارنة بين الديمقراطية وبين ما سماه بالإستراتوقراطية من كلمة إستراتوس اليونانية التي تعني الجيش. وحكومة العسكر في كل زمان وفي كل مكان لا شغل لها إلا في البحث عن خصم تقاتله أو تهدد بمقاتلته لتحويل أنظار شعبها عما توقعه فيه من التعاسة جراء الانفراد بخيرات الوطن وتبذيرها في شراء الأسلحة.

بيد أن تلك الأسلحة لن تفيد حكام الجزائر في عدوانها على الوحدة الترابية المغربية لأن المغرب أقدم رسوخا من أن ينال منه التهديد والمناورات الماكرة ورفع الشعارات الكاذبة الجوفاء. وإن كان للجزائر حلفاء فللمغرب حلفاء. وإن كان للجزائر نفط وغاز فللمغرب دولة منسجمة مع شعبها تمام الانسجام، متماسكة الأطراف بفضل تمسك هذه الأطراف بهوياتها المحلية. ولذلك فهي ماضية بتأن وثبات في بناء صرح الديمقراطية. وقد استرجعت أقاليمها الصحراوية بالتفاوض مع إسبانيا. ومنذ ذلك الحين وهي تعمل من أجل إدماج المواطن الصحراوي في الجماعة الوطنية. وقد انبرى الأستاذ الشرقاوي في القسم الثاني من كتابه، وهو الأكبر والأوفر بما ورد في صفحاته من البراهين والأرقام والجداول البيانية التي تعطي الدليل القطعي على أن تلك الأقاليم قد اندرجت بما لا سبيل إلى الشك فيه أو التراجع عنه بالأحرى في المجتمع الوطني منذ 1975. ولم يحصل ذلك فقط بفضل نهج الدولة المركزية لخطة التمييز الإيجابي لفائدة هذه الأقاليم التي لم تجن من الفترة الاستعمارية شيئا يذكر، ولكن أيضا لأن المواطنين الصحراويين انخرطواتوا ومن تلقاء أنفسهمفي هذه النهضة الإقليمية مشاركين في كل الانتخابات المحلية والوطنية التي جرت في المغرب، منصهرين في الكتلة الوطنية بإقدامهم على التزوج من خارج وسطهم الصحراوي القبلي بنسب أثبتها الأستاذ الشرقاوي بكل دقة، متقدمين على الكثير من باقي الجهات المغربية على درب محو الأمية وارتفاعنسب التمدرس وتقلص مؤشرات الفاقة والفقر واطراد علامات دخول الحداثة من كل أبوابها ونبذ ما تآكل من الأعراف الموروثة في مجال كان كله بادية وترحال في الخلاء، وهو اليوم، شأنه شأن المغرب قاطبة، كله حضارة واستقرار في المدن، مع ما يترتب على هذا التكدس في المدن وهذا التشوف للمزيد من الحداثة من القلق المفضي إلى الاضطراب أحيانا، يقع منه في الأقاليم الصحراوية ما يقع في باقي مدن البلاد التي تجتذب وتضم الشباب ولا توفر لهم جميعا ما يتوقون إليه من أسباب التكسب والرفاهية، مما ينبغي تناوله سوسيولوجيا واقتصاديا وليس سياسيا لأنه دليل معكوس عن الإدماج وليس دليلا مفترضا عن رغبة في الانفصال.

ومن فضائل مثل هذه الأبحاث السوسيولوجية التي تسلط المجهر الدقيق على الحاضر الحي المتقلب أنها تمكن القارئ لاسيما إذا كان من المؤرخين من ربط الماضي بالحاضر. فإن الأقاليم الصحراوية كانت دائما وأبدا جزءا لا يتجزأ من الكيان المغربي. أليست الكثير من القبائل من أصل صحراوي كالرحامنة والودايةوأولاد دليم وأولاد بوسبع والعروسيين، منهم من رحل إلى«الغرب«كما كان يقال عما يقع شمال سلسلة الأطلس ومنهم من لا يزال مستوطنا للصحراء. ألم تكن البيعة العامة في عنق القبائل الصحراوية علما بأن البيعة قائمة على الطاعة بالمستطاع والتزام الصف عند الفرائض وترك الأمور المحلية شورى بين أهلها. لقد ذكر الأستاذ الشرقاوي فيما ذكر من مستنداته الغزيرة الفرنسي ألكسيس دي توكفيلمن حيث كتابه عن النظام الملكي القديم في فرنسا الذي برهنفيه بتمام الوضوح على أن العديد من المؤشرات كانت توحي منذ ما قبل الثورة بسير البلادنحو الأساليبالديمقراطية.وقد سبقه ابن خلدون إلى شيء من ذلک عندما قال بأن الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء. فلو لم تكن الأقاليم الصحراوية مندمجة في الجماعية الوطنية قبل الفترة الاستعمارية لما تأتى إدراجها فيها من جديد بعد استقلالها في ظرف وجيز وبالرغم من كل المثبطات ومن مناورات حكام الجزائر الذين ابتدعوا«شعبا صحراويا«سنة 1975 بعد أنرفضواسنة 1962أن يستفتى التوارق عن إلحاقهم بالجزائر.

إبراهيم بوطالب